الثقافة الاستراتيجية بين الجهاد والمقاومة والإرهاب.. النموذج الأفغاني

أ.لبنى السبيلجي

إن الحديث عن الثقافة الاستراتيجية لبلدٍ ما إنما يعني «منظومة عقائده المشتركة، وفرضياته، وأنماط سلوكه، المستمدة من تجارب مشتركة وروايات مقبولة، تسهم في صوغ هوية جماعية وعلاقاتٍ بالجماعات الأخرى، وتحدد الغايات والوسائل المناسبة لإنجاز الأغراض الأمنية»[١]؛ لذا فالثقافة الاستراتيجية تشير إلى أصل سلوك الدولة من الداخل من مدخل ثقافة المجتمع الوطنية ككل[٢].

ومن ثم؛ فالبحث يهدف إلى استجلاء الثقافة الاستراتيجية لأفغانستان -قدر الإمكان- وتجلياتها الحالية في عالم الأحداث في عام ٢٠١٠. ولما كان مفهوم الثقافة الاستراتيجية مفهوم له بعد تاريخي بطبيعته، فالشعوب تستقي تلك الثقافة عبر تجاربها التاريخية وتأثيرات الجغرافيا والديموجرافيا عبر السنين، بالإضافة إلى عقائدها الدينية الراسخة والعادات الاجتماعية؛ لذلك فتقدمة هذا البحث بمقدمة عن أفغانستان من حيث التكوين والجغرافيا والتاريخ لهي أمر مهم يمكننا من قراءة الواقع المعاش حاليًا. فإن كان البحث ينطلق من مبدأ الرصد والتحليل، إلا أن طبيعة المفهوم تفرض المرور بالتاريخ والفكر لهذا البلد.

أفغانستان: معلومات أولية

تقع أفغانستان في جنوب آسيا الوسطى تجاورها من البلدان: إيران غربًا، طاجكستان ووزبكستان وتركمانستان من الشمال، والصين في أقصى شرق البلاد، وباكستان جنوبا وشرقًا[٣].

وهي تقع في طريق الحرير القديم؛ لذا فقد كانت مطمع الدول الكبرى عبر التاريخ بسبب موقعها المهم، ومن ثم فالاحتلال الأجنبي لها ليس بالأمر الغريب على الأفغان. هذا إضافةً إلى أن التدخل الأجنبي في سياسات أفغانستان أمر معتاد، مما سبب عدة حروب داخلية وصراعات عديدة عبر الزمن.

يبلغ عدد السكان حوالي ٣٢ مليون نسمة[٤]، ٢٨٪ منهم فقط يقرءون ويكتبون.. أي أن نسبة الأمية تزيد على ٧٠ ٪. وعن التوزيع النوعي لهذه النسبة فهو حسب إحصاءات عام ٢٠٠٠ كالآتي[٥]: ٤٣,١٪ فقط من الرجال يقرءون ويكتبون، وتنخفض هذه النسبة لتصل إلى ١٢,٦٪ من النساء. وفي ظل ارتفاع نسبة الأمية لدى الشعب الأفغاني على هذا النحو، فإنه من الصعب الحديث عن وعي شعبي أو ثقافة عامة تصل جميع الطبقات بعضها البعض.

وتتسم أفغانستان بالتنوع العرقي وتتوزع النسب على النحو التالي: من البشتون ٤٠٪، الطاجيك ٢٥٪، الهزارة ٢٠٪، الأوزبك ٥.٧٪، التركمان ٢٪ ثم ٥.٤٪ مجموعات أخرى[٦].

وبالتبعية، فهناك عدة لغات: الفارسية ٥٠٪ والبشتون ٣٥٪ ثم الأوزبكية ٨٪ ثم العربية كأقلية[٧].

أما من حيث الدين، فإن ٨٠٪ من السكان من المسلمين السنة و٢٠٪ من المسلمين الشيعة، وتوجد أقليات أخرى مثل السيخ والهندوس.

إذن، فأفغانستان غنية بالتنوع العرقي واللغوي، بالإضافة إلى توزع هذا التنوع إلى مناطق مختلفة. أما المجتمع الأفغاني فهو مجتمع قبلي تحكمه القبلية في العديد من الأمور خاصةً السياسة بطبيعة الحال.

نبذة عن التاريخ الأفغاني:

أدى الموقع الجغرافي المميز على طريق الحرير وفي وسط آسيا الوسطي -وكما أشير- إلى محاولة سيطرة القوى الكبرى على أفغانستان عبر العصور المختلفة. ومنذ تأسيس أفغانستان المعروفة حاليًا عام ١٧٤٧ على يد أحمد شاه الدوراني، تلعب الدول الكبرى أدوارًا مهمة في تشكيل الوضع الأفغاني. فتعاقب عليها عدة أشكال من الاحتلال، ويمكن تقسيم تاريخها إلى عدة مراحل:

أولا- الاحتلال البريطاني[٨]:

مثلت الدولة الأفغانية عائقًا أمام توسع الإمبراطورية البريطانية من ناحية والإمبراطورية الروسية من ناحية أخرى. وقد أدى الصراع على أفغانستان إلى نشوب حربين ضد أفغانستان من قِبل القوات البريطانية: الأولى في ١٨٣٩ وانتهت بانتصار أفغانستان، ثم الثانية في ١٨٧٨ وانتهت بسيطرة بريطانيا على السياسة الخارجية الأفغانية. ولقد نالت أفغانستان استقلالها من تلك السيطرة في ١٩١٩ عقب هجوم من أمان الله على الهند للضغط على بريطانيا لنيل ذلك الاستقلال.

ثانيًا- الاحتلال السوفيتي:

لم تغب روسيا عن المشهد الأفغاني عبر الفترات المتعاقبة. وتحول هذا التأثير إلى احتلال فعلي في ٢٤ من ديسمبر ١٩٧٩، وذلك حين شعرت موسكو أن النظام الماركسي في أفغانستان (الذي بدأ في أبريل ١٩٧٨ عقب انقلاب عسكري) لم يعد يستمع إلى توجيهاتها في إخماد الغضب الشعبي إزاء السياسات الماركسية لذلك النظام في عهد حفيظ الله أمين. وقد استمرت المعارك حتى انسحاب القوات السوفيتية في ١٩٨٩.

وفي خلال هذه الأثناء، ظهر «المجاهدون» لمقاومة الاحتلال، وقد كان تسليحهم ضعيفًا في بداية الأمر؛ إذ كانت إمكاناتهم قليلة، ثم تدخلت الولايات المتحدة وأعطت الضوء الأخضر لدعم المجاهدين ضد الاتحاد السوفيتي، فجاء الدعم من كل حدبٍ وصوب، وسمحت الدول العربية للشباب بالذهاب للجهاد في أفغانستان وبالفعل فقد ذهب الكثير (خاصةً مع تنامي الصحوة الإسلامية في ذلك الوقت)، وهنا كان مصطلح «الجهاد» هو المهيمن على تلك المقاومة.

ثالثًا- المجاهدون الأفغان: من الجهاد إلى التقاتل الداخلي:

في عام ١٩٨٥، اتحدت الأحزاب المجاهدة السبعة الرئيسة تحت راية واحدة وسميت «الاتحاد الإسلامي لمجاهدي أفغانستان» بقيادة عبد رب الرسول سيّاف، ونجحت في إرغام الروس على الانسحاب. وقد تلقى هذا الاتحاد دعمًا من الولايات المتحدة وعدة دول أخرى. ولكن منذ رحيل السوفيت عام ١٩٨٩، دارت رحى العديد من الحروب الداخلية في البلاد، وهي لم تكن حروبًا داخلية بمعناها التقليدي، بل كان هناك تدخل واضح من قِبل باكستان الجارة الجنوبية لأفغانستان. وفي ٢٤ من أبريل ١٩٩٢، تم توقيع اتفاق عُرف باسم اتفاق بيشاور من قِبل أحزاب الاتحاد الإسلامي لمجاهدي أفغانستان السبعة وحزب الوحدة الشيعي والحركة الإسلامية محسني، وفيه تم الاتفاق على تشكيل حكومة مؤقتة لمدة شهرين وعلى رأسها صبغة الله مجددي، ثم يتبعه ولمدة أربعة أشهر برهان الدين رباني. ولكن الحزب الإسلامي بقيادة حكمتيار الذي كان مواليًا لباكستان رفض الاتفاقية بالرغم من أنه من الموقعين عليها، فهاجم كابل وانهارت الاتفاقية، وبقي رباني في رئاسة الدولة.

ثم عادت الأحزاب المتناحرة لتجتمع في ٧ من مارس ١٩٩٣ في إسلام أباد في باكستان بعد حربٍ ضروس ومعارك طاحنة في كابل، وتم توقيع اتفاقية جديدة عُرفت باتفاقية إسلام أباد، وشاركت فيها السعودية وباكستان، ولقد نصت الاتفاقية على تولي رباني رئاسة الدولة لمدة ١٨ شهرًا، وتولي قلب الدين حكمتيار رئاسة الوزراء، وأن يتم إيقاف إطلاق النار. إلا أن الاتفاقية لم تنفذ بسبب اندلاع القتال من جديد بين رباني وحكمتيار بسبب الاتهامات المتبادلة بين الحزب الإسلامي والجمعية.

وفي الأول من يناير عام ١٩٩٤، تعرض برهان الدين رباني لمحاولة انقلاب بيد تحالف بين حكمتيار وعبد الرشيد دوستم وصبغة الله مجددي وحزب الوحدة الشيعي، ولكن الانقلاب فشل من قِبل أحمد شاه مسعود القائد المعروف وتم تجديد فترة حكم رباني لعام آخر في يوليو١٩٩٤.

وفي نوفمبر ١٩٩٤، بدأت طالبان في الظهور، وخلال عامين سيطرت على معظم مناطق أفغانستان حتى دخلت كابل عام ١٩٩٦ وأعلنت نفسها الحاكمة للبلاد بإزاحة رباني وحكمتيار الذي وقع مع رباني اتفاقية عام ١٩٩٦[٩]. ولم يزل القتال قائمًا بين تحالف الشمال بقيادة أحمد شاه مسعود (الذي أُغتيل قبل أحداث الحادي عشر من سبتمبر بيومين) وبعض المجاهدين وطالبان حتى دخول القوات الأجنبية لأفغانستان، وقد ساعد تحالف الشمال القوات الأجنبية في السيطرة على كابل.

رابعًا- احتلال الولايات المتحدة و«التحالف ضد الإرهاب» من خلال الناتو:

وبعد ذلك، هاجمت الولايات المتحدة أفغانستان بحجة إيواء طالبان لأسامة بن لادن المتهم بتخطيط هجمات الحادي عشر من سبتمبر في عام ٢٠٠١. ومنذ ذلك الحين تخضع أفغانستان للاحتلال الأجنبي المتمثل في قوات الناتو (الإيساف). وقد تم ذلك تحت مظلة الأمم المتحدة.

وهذه النبذة التاريخية تثير عدة ملاحظات حول الحالة الأفغانية بشكلٍ عام، فإن كان الغرض من البحث رصد أحداث العام ٢٠١٠ وتأثيرها في وضع الثقافة الإستراتيجية لأفغانستان، إلا أن الوضع المتأزم في أفغانستان لم يكن وليد الأمس، بل هو حصاد سنين من الاحتلال والمقاومة والجهاد وأخيرًا «الإرهاب»، سنين من القتال والتقاتل والفرقة، سنين من الدعم والتجريم، ومن الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية السيئة. ومما يستدعى من ملاحظات:

١- أن المصطلحات والمفاهيم المستخدمة في الحالة الأفغانية لهي أكبر مؤشر على تأثير المصالح السياسية للدول الكبرى في تلك المسميات. فعندما جاهد الأفغان ضد المحتل السوفيتي -وهو جهاد واجب ومفروض- أُطلق عليهم «المجاهدون» وكان مسمى مشروعًا، وذلك مع توافق المصلحة مع الولايات المتحدة في إطار الحرب الباردة.

لقد سمحت الدول الإسلامية والعربية بالخروج للجهاد ودعم المجاهدين على غير العادة بسبب الدعم الأمريكي، و الوضع نفسه نراه في الحالة الشيشانية (قارن ذلك بالوضع الفلسطيني؛ حيث إنه حتى مصطلح الجهاد غير متداول في هذه القضية). أما الآن، فقد اختلفت الأوضاع وأُطلق الكثير من المسميات في غرف صانعي القرار وليس الباحثين.

كذلك، فإن مفهوم الثقافة الاستراتيجية يثير بعض الإشكالات، فإذا كان المفهوم يتحرك في الحديث عن ثقافة الدولة وتأثيرها في رؤيتها الأمنية وسياستها الخارجية والداخلية وأنه ينبع من الهوية الجماعية لتلك الأمة والعقيدة المشتركة لها، فالدولة من المفترض أن تترجم ذلك الوعي الجمعي من خلال مؤسساتها المختلفة، ومن ثم فإن السؤال هو: هل يمكن تطبيق هذا المفهوم مباشرةً؟ ومن هو الممثل لتلك الثقافة؟

فلقد تناحرت الفصائل المختلفة بعد حرب السوفيت، وظلت البلاد فترة كبيرة دون حكومة مركزية مستقرة، وطغت الأمية على ذلك الشعب الذي شهد حروبًا طويلة أكلت الأخضر واليابس. ثم جاءت حركة طالبان لتحكم بالحديد والنار وتمثل في الوقت ذاته نجاة من الحرب الأهلية القائمة..

٢- أعتقد أن الثقافة الاستراتيجية في الحالة الأفغانية هي في مرحلة تحاول أطراف عدة التأثير فيها وإعادة تكوينها. لذا؛ فالسؤال هو: هل تتمكن القوات الأجنبية من التأثير في تعريف الأفغان للعدو؟ وللإجابة عن هذا التساؤل سنحاول تمثيل الأطراف الفاعلة على الساحة الأفغانية كي تتمكن من رصد وتفسير وتحليل أحداث الحالة الأفغانية من مدخل حالة الاحتلال والتعامل معها.

لقد أثبت التاريخ الأفغاني أن الأفغان لا يقبلون الاحتلال، ولا يتوانون عن الجهاد والقتال ضد المحتل، ولم يستطع أي محتل الصمود أكثر من عِقد على الأرض الأفغانية؛ فأحد مقومات الثقافة الإستراتيجية هو رفض الاحتلال وعدم التسليم له حتى وإن كانت الحروب الداخلية متعددة والقبلية مستشرية. ولكن السؤال الآن هو: هل تلك الثقافة قد تتغير قريبًا؟ هل استهداف قوات الاحتلال الدولية أهدافًا غير عسكرية بجانب أهداف عسكرية قد يغير تلك الثقافة؟ هل «التطوير» المنشود من قِبل القوات الأجنبية قد يحول «الجهاد» إلى إرهاب يومًا ما؟

الساحة الأفغانية: الأطراف الفاعلة

هناك عدة أطراف على الساحة الأفغانية، وهذه الأطراف ليست متجانسة الرؤى في كثيرٍ من الأحيان، وستقتصر الدراسة على عدد معين من الفاعلين ترى أنهم الأهم.

فعلى المستوى الداخلي للدولة؛ توجد الرئاسة والحكومة الأفغانية، وتوجد القبائل والأحزاب: وذلك مثل تنظيمات المجاهدين حيث يوجد على سبيل المثال «تنظيم الدعوة الإسلامي بأفغانستان» وهناك الحركة الوطنية الإسلامية الأفغانية («عبد الرشيد دوستم» الشيوعي السابق)، والتنظيمات القبلية مثل اللوياجرغا. وهذا بالطبع إلى جانب: حركة طالبان الأفغانية، ومجموعة حقّاني التابعة لها، والحزب الإسلامي بقيادة قلب الدين حكمتيار.

هذا، فضلا عن الأطراف الخارجية ذات الصلة المباشرة، لاسيما قوات الاحتلال.

الوضع الأفغاني في عام ٢٠١٠:

منذ إقرار أوباما خطته الاستراتيجية في أواخر عام ٢٠٠٩ والوضع الأفغاني يأخذ منحًى آخر ألا وهو التمهيد لانسحاب القوات الأجنبية من أفغانستان، والتي اتفقت على الانسحاب بحلول العام ٢٠١٤ مع عمل شراكة استراتيجية في قمة الناتو في لشبونة في ٢٠ من نوفمبر ٢٠١٠. ويمكن القول إن ٢٠١٠ يعد بالنسبة لأفغانستان عام المؤتمرات بامتياز، فقد شهد العام ثلاثة مؤتمرات حول الشأن الأفغاني: أولها مؤتمر لندن عن أفغانستان في ٢٨ من يناير ٢٠١٠، ثم كابل في ٢٩ من يونيو ٢٠١٠، ثم قمة الناتو بلشبونة في٢٠ من نوفمبر ٢٠١٠.

- مؤتمر لندن (٢٨ من يناير):

لقد أقر مؤتمر لندن استراتيجية تُلزم الدول الغربية بالمساعدة على بناء الجيش والشرطة والاقتصاد في أفغانستان، إضافةً إلى تمويل جهود الحكومة الأفغانية الرامية إلى محاربة الفساد وإقناع مسلحين من طالبان بالمشاركة في العملية السياسية الجارية في البلاد[١٠]. ورُصد لذلك مبلغ ١٤٠ مليون دولار لإنشاء صندوق لدعم جهود المصالحة مع مقاتلي طالبان الذين ألقوا السلاح.

وإذا ما انتقلنا إلى التفاصيل المتصلة بتلك المقررات، سنجد أنه بالفعل بدأت قوات التحالف منذ هذا المؤتمر الاتجاه

إلى تمكين القوات الأفغانية أكثر فأكثر من القيام بالمهام الأمنية؛ حيث إن ذلك «يمثل خطوة حاسمة تجاه قيادة أفغانية أكبر لتحقيق الأمن والاستقرار والتنمية في أفغانستان» كما جاء في بيان المؤتمر. إلا أن المؤتمر أكد أن ذلك لا يعني تخلي المجتمع الدولي عن أفغانستان، بل هو ملتزم بأمن أفغانستان واستقرارها[١١].

- مؤتمر كابل (٢٩ من يونية):

ويعد مؤتمر كابل أكبر مؤتمر تنظمه أفغانستان في العقود الماضية بحضور بان كي مون –الأمين العام للأمم المتحدة– وأندرس فوج راسموسن –الأمين العام لحلف شمال الأطلنطي– بالإضافة إلى ممثلين عن ٧٠ دولة ومنظمة دولية. والحكومة الأفغانية عندما استضافت هذا المؤتمر أرادت أن تقول للمجتمع الدولي إنها قادرة على تأمين سلامة الضيوف الذين كان من بينهم ٤٤ وزيرًا للخارجية ومن ثم بإمكانها أن تتولى مسؤولية الدفاع في المستقبل كما يشير إلى ذلك بشير الأنصاري[١٢].

وقد هدف هذا المؤتمر إلى التباحث حول المصالحة مع المعارضة والتوطئة لتسلم مهام الأمن والتصرف في نسبة أكبر من المساعدات الدولية التي تتولاها الآن الهيئات العالمية في أفغانستان.

ويرى المراقبون أن مؤتمر كابل لم يأت بجديد عن مؤتمر لندن، فملف المصالحة والفساد وتسليم القيادة للأفغان هي الأهداف نفسها الأساس التي كانت لمؤتمر لندن. ويرى الأنصاري أن «المستفيد الأول من مؤتمر كابل هو الرئيس حامد كرزاي الذي تمكن من هندسة المؤتمر بطريقة تحقق أهدافه مثل أخذ موافقة دول التحالف على إبقاء قواتها في أفغانستان حتى العام ٢٠١٤، وهو العام الذي تنتهي فيه ولايته، وهو بحاجة إلى من يحافظ على عرشه»[١٣].

- قمة الناتو بلشبونة (٢٠ من نوفمبر):

لقد كانت قمة لشبونة –فيما يتعلق بأفغانستان– جزءًا لا يتجزأ من تلك السلسلة الممتدة من الاجتماعات، فقد صرح الأمين العام لحلف شمال الأطلسي أندرس فوج راسموسن في افتتاح جلسة اليوم الثاني بأن «التوجه المباشر اعتبارًا من اليوم هو نحو قيادة أفغانية للوضع في أفغانستان». وأضاف أن «هذه هي رؤية الرئيس الأفغاني حامد كرزاي التي نشاركه فيها وسنجعلها حقيقة واقعة اعتبارًا من العام ٢٠١١، مع استمرار الحلف في تنفيذ التزاماته هناك». مؤكدًا أن الحرب ضد الإرهاب أمر مهم بالنسبة للحلف كما هو مهم بالنسبة للأفغان، وأن الانسحاب من أفغانستان يعتمد في النهاية على الأوضاع على الأرض. قائلا في مقابلة مع صحيفة «فايننشيال تايمز» إنه إذا لم تستوف الشروط الكاملة بنهاية العام ٢٠١٤، فيتعين على الحلف مواصلة «المهمة القتالية»[١٤].

وبناءً على ما سبق، يمكن تلخيص هذه المؤتمرات في ثلاثة أهداف هي؛ الانسحاب وإعطاء «القيادة» للأفغان، وجهود المصالحة ودمج مقاتلي طالبان، ومحاربة الفساد.

وأرى أن هذه الأهداف تعكس الأزمة التي يعيشها التحالف الدولي والتخبط في استراتيجيته في أفغانستان. فبالنسبة للانسحاب وما يتعلق به من تصريحات مختلفة حول الجدول الزمني له؛ فقد أكدت تلك المؤتمرات أن الانسحاب يبدأ في ٢٠١١ وينتهي في ٢٠١٤ مع الإبقاء على الدعم اللازم للحكومة الأفغانية في حالة الاحتياج إليه. ثم نجد أن راسموسن قد أكد أن ذلك يخضع للظروف على الأرض. وبذلك تظهر الضغوط الحاصلة على الحكومات لإعلان جدول للانسحاب، برغم أن الوضع على الأرض يشير إلى فشل هذه الحملة وانتصار المقاومة الأفغانية.

أما فيما يتصل بالفساد، ففي الوقت الذي تصنف فيه منظمة الشفافية الدولية الحكومة الأفغانية على رأس قائمة أكثر الدول فسادًا في العالم –إذا استثنينا الصومال بحكم أوضاعها المختلفة– جاء مؤتمر كابل الدولي لتعلن الدول المانحة فيه تسليم ٥٠٪ من معوناتها إلى حكومة غارقة في الفساد بدلا من المنظمات الدولية.

هذا، علمًا أن هذا المعدل للفساد في أفغانستان هو معدل تصاعدي، فقبل سنتين كانت الحكومة الأفغانية تحتل المرتبة الخامسة في الفساد في العالم، ولكنها اليوم تتصدر تلك القائمة. والسؤال الذي يطرح نفسه: ما الذي جعل المجتمع الدولي يضاعف ثقته في نظام يضاعف فساده؟![١٥]

إلا أن هناك من يرى أنه مطلوب الآن الترويج لتعليل الانسحاب بعجز الأفغان أنفسهم عن «الارتقاء» إلى المستوى الذي يريده لهم الغزاة العسكريون من الديمقراطية والتنمية الاقتصادية والرفاهية المعيشية. وبالفعل، فقد بدأ تأكيد هذه الفكرة لدى الرأي العام الغربي عبر التركيز المكثف على فساد حكومة كرزاي.

أي أن المقصود في نهاية المطاف هو تعليل الانسحاب المقبل حتمًا بالقول إن الفئة التي تسلمت السلطة عن طريق القوات الأمريكية، وبقيت فيها بدعمها هي مع دعم القوات الأطلسية، ليست جديرة بمزيد من العون العسكري والسياسي والاقتصادي لأنها فئة فاسدة»[١٦].

أما المصالحة، فهي تدل على جهل بالعقيدة الطالبانية والمقاومة الأفغانية، حيث إن مشكلتها الأساس هي مع الاحتلال كما يؤكد بذلك عبد السلام ضعيف[١٧] سفير طالبان في أفغانستان سابقًا، بينما رصد الأموال يعني وضع فرضية أن الأفغان يقاتلون من أجل المال والوضع الاقتصادي، وهي

فرضية غير صحيحة -في اعتقادي- وتمثل جهلا بالثقافة الأفغانية. وفي الوقت نفسه، فإن قوات التحالف تستعدي كل الأفغان بحملات الطائرات بدون طيار التي تسفر عن ضحايا مدنيين كثر.

ومع كل ذلك، فلا شك أن المصالحة مطلوبة لدرء فتنة الاقتتال الداخلي مستقبلا ولكن يجب أن تكون مصالحة وفق إرادة أفغانية بحتة وبرعاية شخصيات وطنية.

- الانتخابات الأفغانية (١٨ من سبتمبر):

لقد أقامت الحكومة الأفغانية الانتخابات البرلمانية في الثامن عشر من شهر سبتمبر، وأعلنت النتائج النهائية في نهاية شهر نوفمبر المنصرم، أي بعد حوالي شهرين ونصف.

وقد أوردت جريدة «النيويورك تايمز» عدة شهادات[١٨] حول حالات تزوير شابت العملية الانتخابية تنوعت ما بين تسويد البطاقات والرشى للموظفين كبارهم وصغارهم، إضافة إلى إرهاب المواطنين للتصويت لصالح مرشّح ما أو عدم التصويت لآخر.

وقد أُنفق ١٥٠ مليون دولار على هذه الانتخابات من قِبل دول التحالف؛ وذلك لإضفاء صورة زاهية على المشهد الأفغاني إلا أن المحاولة باءت بالفشل الذريع، فمشهد الانتخابات لم يكن أقل إحباطًا من بقية المشاهد الأفغانية بالنسبة لقوات الاحتلال. فقد أظهرت النتائج إبطال أكثر من ربع الأصوات من بين ٥-٦ ملايين صوت تم الإدلاء بها في هذه الانتخابات.

أيضًا، فإن نتائج الانتخابات لم تعكس النفوذ القبلي على الأرض، وكان هناك الكثير من الخاسرين والمحتجين مما يؤدي إلى حالة من التوتر على الأرض.

لقد أرادت قوات التحالف أن تؤكد نصاعة المشهد الأفغاني، وتطور ثقافته ومؤسساته فإذا بها «تمثيلية» هزلية أحبطت العالم الغربي من الوضع الأفغاني؛ فالبرلمان الجديد فاقد مصداقيته وشرعية الرئيس زادت اهتزازًا بعد الانتخابات الرئاسية المحبطة.

إن الانتخابات أكدت أن الاحتلال يهتم «بتمثيل» الديمقراطية دون أن يعبأ بما إذا كان يتوافر لها البنية المطلوبة والثقافة الداعمة أو لا؛ فأفغانستان تعاني عدم الاستقرار الأمني والاحتلال والقبلية والفساد، ولم تكن الحكومة إلا قائدة لقاطرة من الفساد -حسب تقرير الشفافية الدولية.

ومن ثم، فلم تسفر الانتخابات إلا عن مزيد من السخط الداخلي والخارجي.

- الوضع العسكري:

لقد تكبدت قوات الاحتلال حوالي ٦٠٠ قتيل خلال العام ٢٠١٠، وطبقًا لتقرير عسكري أمريكي يصدر بشكل دوري -وفي عدده الذي يغطي الفترة من أبريل /نيسان حتى الثلاثين من سبتمبر/أيلول ٢٠١٠- فإن العنف في أفغانستان بلغ في الأشهر الأخيرة أعلى مستوى له على الإطلاق، وإن ما وصفه التقرير بالتمرد يزداد تعقيدًا وتصاعدًا. كما أشار التقرير العسكري الموجه إلى الكونجرس إلى أن حوادث العنف زادت بنسبة ٣٠٠٪ مقارنةً بالفترة نفسها من عام ٢٠٠٧ باستثناء القنابل التي تفجر على الطرق[١٩].

ويصل نفوذ طالبان وسيطرتها على الأرض إلى مساحة كبيرة وعلى النحو الذي يجعل البعض يرى أن الحكومة لا تسيطر فعليًا إلا على كابل (علمًا أن هناك افتقارًا إلى تقارير حيادية عن نفوذ طالبان بالضبط).

ولكن فيما يتعلق بالمقاومة -التي هي محل اهتمام الدراسة- فإنها تكتسب قوة على الأرض بما يؤكد لقوات التحالف يومًا بعد يوم أنها في مأزق، بمعنى أنها إذا استمرت في المستنقع الأفغاني فقد ينفرط عقد قوات التحالف بسبب النفقات العالية التي تتحملها دوله في ظل أزمة اقتصادية ونتائج هزيلة على الأرض، وإذ انسحبت -كما تروج لذلك حكومة كرزاي- فإن دخول طالبان لكابل وشيك، واحتمال حرب أهلية ليس ببعيدٍ أبدًا.

- الوضع الإنساني في أفغانستان (حسب التقارير الدولية)[٢٠]:

لقد صعدت أفغانستان عدة مراتب وفق مؤشر التنمية البشرية الذي يصدره برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، حيث كانت تحتل المرتبة ١٨١ من أصل ١٨٢ بلدًا في عام ٢٠٠٩ لترتفع إلى المرتبة ١٥٥ من أصل ١٦٨ بلدًا في مؤشر هذا العام.

ويقيس مؤشر التنمية البشرية معدل الإنجازات في كل بلد وفقًا للعناصر الأساس للتنمية البشرية، وهي: الحياة الطويلة والصحية، وإمكانية الحصول على المعرفة، والمستوى المعيشي اللائق.

مع ذلك، فإنه وفقًا لتقرير برنامج الأمم المتحدة الإنمائي لاتزال أفغانستان واحدة من البلدان الـ ٢٣ الأقل نموًا في العالم؛ إذ إن ٤٢٪ من الأفغان فقراء ويصل معدل العمر المتوقع عند الولادة في البلاد إلى ٤٤,٦ عام ويوجد طبيب واحد وسريرا مستشفى فقط لكل ٥٠٠٠ أفغاني. في الوقت ذاته، يصل معدل وفيات الأطفال دون سن الخامسة في البلاد إلى ٢٧٥ لكل ١٠٠٠ ولادة حية، ومعدل الوفيات النفاسية إلى ١٤٠٠ لكل ١٠٠,٠٠٠ ولادة. كما لا يستطيع أكثر من نصف الأفغان الحصول على مياه الشرب المأمونة. ولا يتمتع ٦٣٪ منهم بخدمات الصرف الصحي المحسنة.

ويفيد التقرير أنه على الرغم من الصعوبات العديدة، يشعر أكثر من نصف الأفغان بالرضا عن ظروف معيشتهم. وقد

صنّفت منظمة الشفافية الدولية، وهي منظمة متخصصة في مراقبة الفساد تتخذ من برلين مقرًا لها، أفغانستان الدولة الثالثة الأكثر فسادًا في العالم في عام ٢٠١٠[٢١].

- الحالة الثقافية:

ليست أفغانستان بذلك مجرد «مقبرة عسكرية» لإمبراطوريات العصر الحديث، بل هي أيضًا مقبرة «استراتيجيات الهيمنة» التي حملت البصمات الأمريكية والأطلسية في العصر الحديث[٢٢]. إلا أنه مع ذلك، يرى البعض من خلال الرصد أن هناك تأثيرًا ثقافيًا لاستراتيجيات الهيمنة تلك.

هناك نوعان من الثقافة سيتم رصدهما في هذا البحث؛ الثقافة اليومية والمقصود بها ما يتصل بطبيعة الحياة اليومية للأفغان من مأكل ومشرب وملبس واهتمامات ثقافية مما يشير إلى تحول أو عدم تحول في هذا الشأن، والثقافة الاستراتيجية وهي تعريف الأطراف المختلفة للعدو ورؤيتهم للوضع الأفغاني وسبل الحل. ثم سيكون الحديث عن «الغزو الثقافي» لأفغانستان حسب رؤية الكاتب أمين الخراساني.

وقبل البدء، أود الإشارة إلى ملاحظة مهمة تتعلق بالبحث؛ وهي ضعف المصادر المتعلقة بالوضع الأفغاني من داخل الأمة الإسلامية. فإن الشبكة المعلوماتية تزخر بالمعلومات والأرقام والتقارير «العلمية» عن أفغانستان، ولكن من يكتبها جهات لها مصالح أو علاقة بالاحتلال الأجنبي، أما ما يُكتب من الأفغان أو مِن كتّاب من الأمة فهو مقالات رأي مميزة ولكنها ليست مدعومة بأسلوب علمي منضبط. لذا؛ فلقد مررت خلال بحثي بمراحل التبست عليَّ المفاهيم والأمور خلالها بشكلٍ كبير. فإذا اكتفينا بالتقارير «الدولية» فإن الوضع الأفغاني سيلتبس علينا كثيرًا، ما دفع إلى الاعتماد في هذا الجزء على شهادات عن الوضع الداخلي الأفغاني لتُرى الصورة من الداخل من مدخل قيمنا الإسلامية.

الوضع الثقافي في العاصمة المحتلة (الثقافة اليومية):

تعد الحالة الثقافية في أي عاصمة محتلة مؤشرًا على التغييرات الحادثة جراء الاحتلال، فالعاصمة هي المكان الأكثر تأثرًا بأي تغيير ثقافي، وليس شرطًا أن يكون الوضع هكذا في كل أنحاء البلاد، إلا أن غالبًا ما يؤثر ذلك في شكل النخبة الجديدة للدولة، حيث إن أهل العاصمة عادةً ما يتاح لهم التعليم أكثر من القرى البعيدة وبالتالي يؤثر ذلك في تكوين النخب القادمة للدولة.

الشاهد في أفغانستان أنه حدث تغيير كبير في شكل الحياة اليومية ونمطها؛ وشكل المدن الكبرى مثل العاصمة كابل؛ ويقول محمد الشافعي في تقرير لـ«الشرق الأوسط» من أفغانستان: «وتترك كابل، بلا استحياء، اليوم تعاليم الملا عمر وبن لادن زعيم «القاعدة» إلى أغاني الـ«روك آند رول»، والأفلام الأمريكية والهندية التي تكتسح ساحات العاصمة الأفغانية في محلات بيع شرائط الفيديو»[٢٣].

فمن حيث الملابس والأزياء، تنوعت ملابس الشارع الأفغاني بين البرقع والحجاب والسفور، وظهر الجينز في الشباب والبنات، وتبدلت العمامات الطالبانية.

فلقد فرضت طالبان عددًا من الأحكام على النساء بشكلٍ خاص مثل عدم جواز الخروج بدون محرم، وأغلقت مدارس النساء ومنعتها من العمل والقيادة، بالإضافة إلى ذلك مُنع العديد من الأشياء مثل التصوير والسينما والتلفيزيون وما إلى ذلك مما رأوه محرّمًا. فما إن سقطت طالبان وانسحبت من بعض المدن حتى ظهرت مظاهر مختلفة، بعضها غريب على المجتمع الأفغاني المحافظ، ويقول محمد الشافعي: «إن ما يحدث اليوم في الشارع الأفغاني، خلال ما شاهدته «الشرق الأوسط» في الزيارة الأخيرة للعاصمة كابل وعدد من المدن الأفغانية مثل مزار شريف ولشكر غاه عاصمة ولاية هلمند، يعتبر ردة عنيفة عما عاناه المواطنون في عهد الحركة الأصولية»[٢٤].

تغيرت معالم المدينة وانتشرت البنايات الحديثة العالية والفنادق الفخمة مع انتشار أعداد ضخمة من أفراد الأمن والشركات الأمنية الخاصة التي تلتهم نصف الدخل الأفغاني. هذا مع انتشار الأجانب من الأمريكان والأوربيين وما يصحب ذلك من عادات مختلفة عن الشعب الأفغاني. ويصف ذلك محمد الشافعي قائلا: «فالعصر الجديد يدخل بتأشيرة العولمة، وكابل راضية، بل سعيدة، بتوديع عصر الملا عمر و«الأفغان العرب»، والدولار هو سيد الموقف، فكل السلع تتداول بالعملة الأمريكية، والحساب في فندق هيتال بلازا بوسط العاصمة أيضًا بالدولار». ويضيف الشافعي: «وتشهد كابل انتشار البنايات الحديثة، ويعرف المواطنون أن أصحابها هم وزراء سابقون ومجاهدون تحولوا من الكفاح المسلح إلى الجهاد في سوق المال والعقارات... والوقت اليوم في كابل ليس للجهاد وإنما للثراء وجمع الدولار»[٢٥].

فهذه شهادة تؤشر للوضع اليومي الأفغاني في بعض الأماكن، وليس هذا إلا مؤشرًا على حدوث تغيير للجيل الجديد للمدن على الأقل. وليس كل الأفغان يرون في ذلك خيرًا، فالعقلاء يرون ذلك تطرفًا؛ حيث إن من رفض التطرف الطالباني في التعامل مع أحكام الشريعة الغراء واستخدام العنف في تطبيقها رأى ما يحدث الآن أيضًا تضييعًا لقيم الشباب الذي أصبح منشغلا بتوافه الأمور، وتحول من القرآن والعلم إلى أفلام هوليود والموضة. ويقول محمد صديق تشكري -المستشار

الإعلامي الأسبق للرئيس حميد كرزاي، الذي يشغل حاليًا منصب وزير الإرشاد والحج والأوقاف الأفغاني- إن: «الغزو الثقافي ينخر في عظام شبابنا وأشد مرارة من فيروس طالبان».

وتحسر الشيخ تشكري في لقائه مع «الشرق الأوسط» على الحال التي آلت إليها بلاده اليوم بسبب الغزو الثقافي الذي تتعرض له عموم المدن الأفغانية من أغاني «الروك آند رول»، والأفلام الأمريكية والهندية التي تكتسح ساحات العاصمة كابل في محلات بيع شرائط الفيديو -كما سلفت الإشارة- حيث الأقراص المدمجة للأفلام الهندية والغربية، إضافة إلى نحو٢٠ محطة تليفزيونية تبث الغث والسمين من أفلام هوليوود بصفةٍ يومية إلى جانب مسابقات غنائية بحثًا عن مواهب ونجوم في الغناء والرقص وليس في حفظ وتجويد القرآن الكريم[٢٦]. ويضيف أيضًا عامل وجود مائة ألف جندي مسيحي يحتفلون بأعيادهم ويدعون مئات المترجمين إليها.

ويرى الشيخ تشكري أنه «بينما تمكنت العاصمة من صد هجمات طالبان إلا أنها لم تتمكن من صد الغزو الثقافي الهندي لأفغانستان من حيث انتشار الأفلام والموسيقى والرقصات الهنديات والتغيير في مظهر الشباب والبنات. وهو يناشد الدول العربية إنشاء مراكز لتعليم اللغة العربية والقرآن لأبناء الأفغان؛ لأنه مع سطوة الغزو الثقافي سينسى شبابنا جذوره الإسلامية التي تربطه بالقرآن والسنة وتشده إلى عبق الفتوحات الإسلامية الخالدة».

إن الوضع في أفغانستان ليس في صالح أفغانستان بشكلٍ عام، فما يحدث هو صرف الشباب عن الشأن العام إلى أشياء تافهة في إطار ملء فراغ خلقته سياسات طالبان تجاه المجتمع. فنسبة الأمية العالية -خاصةً بين النساء- ودخول القنوات الهندية والأجنبية غير الهادفة ستمثل القناة الأساس لتشكيل الثقافة الأفغانية في الجيل الجديد مما سيخلق جيلا -في أحسن الظروف- منبهرًا بالغرب وسياساته كما حدث في دولنا التي خضعت للاحتلال وعانت ظهور نخب مشوهة الفكر والانتماء. وبالتالي، ستكون النتيجة تغيير الثقافة الإستراتيجية لأفغانستان.

آليات التغيير الثقافي واستراتيجياته:

لم يألُ الاحتلال جهدًا في دفع الثقافة الأفغانية للتغيير؛ لأنه يراها دافعة «للإرهاب» وشوكة في ظهر الهيمنة الأجنبية وأمركة الأفغان. ولكن في الحقيقة أيضًا توجد عوائق ثقافية كبيرة في طريق النهضة الأفغانية، خاصةً تلك الثقافة التي نشرتها طالبان، إلا أنه ليست قوات الاحتلال هي الجهة المناسبة للتغيير في أفغانستان التي هي بلد مسلم مجاهد، ولا بد أن يمتد هذا الجهاد إلى مناحي الحياة الثقافية والاقتصادية والاجتماعية. ولما كان الأمر كذلك، فإننا نحتاج كأمة أن ندعم أفغانستان في مواجهة الغزو الثقافي؛ لأنه قد تنجح الثقافة (القوة الناعمة) فيما فشلت فيه القوة العسكرية.

لقد شهدنا في فترات الاحتلال الأجنبي للأمة نماذج لانكسار الأمة بالغزو االثقافي بعد أن صمدت أمام الغزو العسكري ولم تخنع له، ولقد انهارت أمتنا عندما انهار الفكر ولبسنا عباءة غيرنا. إذ هناك فارق بين تلاقح الحضارات والغزو الثقافي، فالأول تأثر مبني على وعيٍ وعلى بصيرة، أمّا أن نترك هويتنا وأصالتنا في مقابل تبني نماذج لا تناسبنا فهذه هي المشكلة.

وأكبر أزمة في أفغانستان -والتي تعمّق من خطورة الأمر- هي تلك النسبة العالية من الأمية، ودخول قادتها «الجهاديين» ونخبها معارك بالأسلحة لسنوات طوال، ثم مجيء الحكم الطالباني الذي كان له مساوئ ثقافية جمة. مما قد يمهّد لحدوث شرخ في الثقافة الأفغانية المجاهدة.

ويرى الكاتب أمين الخراساني[٢٧] أن قوات الاحتلال تستهدف تغيير ثقافة الأفغان من خلال: إضعاف الالتزام بالإسلام، وإحداث اضطراب في المجتمع، وإحداث التشتت الفكري والثقافي، والتشكيك في الدعاة والعلماء، وإيجاد قيادات بديلة للشباب، ونشر الفكر العلماني، وطرح المسلَّمات الإسلامية للنقاش.

يرى الكاتب أمين الخراساني أن هناك عدة آليات يستخدمها الاحتلال، إلا أنه يؤكد أنها سلاح ذو حدين بحيث يمكن للأمة استخدامها في عملية مقاومة الغزو الفكري، هي:

١. التعليم:

والهدف هو إحداث التغيير عن طريق:

- تغيير المناهج الدراسية في المرحلتين الابتدائية والثانوية. حيث كان يدرَّس المناهج التي وضعها المركز التعليمي التابع لاتحاد الأحزاب الجهادية الأفغانية أثناء فترة الجهاد ضد الروس، ولكن تم حذف مجموعة من المواد الدينية وتقليل ساعات القرآن للأطفال، وإدخال نظريات ثبت عدم صحتها مثل نظرية التطور والارتقاء.
- إرسال مجموعات من أساتذة المدارس من الذكور والإناث لأخذ دورات تدريبية في أمريكا، تلك الدورات التي تنظمها شركات غربية بتكاليف باهظة (تسترد بها أموال إعادة الأعمار!).
- وفيما يخص المرحلة الجامعية، فقد تم إلغاء الفصل بين الإناث والذكور المعمول به في المجتمع الأفغاني المحافظ، واستقدام أساتذة من دول غربية، وعدم الاهتمام بالكوادر الوطنية، وعمل رحلات للمتميزين للسفر لأمريكا، وأخيرًا فتح المجال لإنشاء جامعات خاصة.

ومن مخاطر هذه السياسات أنها قد تؤدي إلى عزوف الأسر الأفغانية عن إرسال بناتها إلى الدراسة مما يزيد من مشكلة الأمية في الإناث.

٢- الإعلام:

وقد تم السماح بإنشاء محطات إذاعية وتليفزيونية وجرائد خاصة، فامتلأت أفغانستان بسيل إعلامي رهيب حتى وصل عدد الجرائد إلى ٣٠٠ جريدة تستفيد ٢٨٠ منها من تمويل غربي وأمريكي، هذا بالإضافة إلى المحطات التليفزيونية العديدة والمحطات الإذاعية المختلفة، والكابلات التليفزيونية والأقراص المغنطة التي تحتوي على الأفلام الهندية والغربية. ويقول أمين الخراساني: «إن مما لا شك فيه أن كثرة الجرائد والمجلات والمحطات الإذاعية والتلفزيونية في بلدٍ ما لهي دليل على نشاط الحركة الثقافية فيه، إلا أن الأمر يختلف في أفغانستان الآن؛ لأن الإعلام موجه توجيهًا معينًا يتعارض مع ثوابت الشعب الأفغاني وقيمه، حيث يُستخدَم هذا الإعلام لإحداث تغيير اجتماعي عميق لصالح المشروع الغربي في أفغانستان. فإن الأمم المتحدة والجهات الأمريكية تمول الإذاعات الخاصة التي تنشر برامج من نوعٍ خاص، وتمول الجرائد والمجلات التي تسهم في عملية التغريب»[٢٨].

إلا أن ذلك في المقابل يترك الباب مفتوحًا لمن يريد الإصلاح أن يصلح، فالفضاء الإعلامي ينتظر دعمًا من الأمة الإسلامية، فذلك يعد جهادًا لا يقل عن إمداد الأفغان بالسلاح في مواجهة أي عدوان كما أرى.

ومن ناحية أخرى، فإن الإعلام الغربي استطاع أن يملأ الإنترنت بوجهة النظر الغربية، مما يسب عائقًا كبيرًا أمام الباحثين ويُحدث تشوشًا فكريًا لديهم، مع وجود نقص كبير في الدراسات العلمية الجادة في هذه المنطقة الساخنة من الجانب المحايد أو الإسلامي.

٣- المرأة:

لقد فتحت سياسات طالبان الظالمة للمرأة المجال للغرب لاستخدام ملف المرأة أداة لإحداث التغيير، فحاولت جعل المرأة الغربية نموذجًا تقتدي به المرأة الأفغانية عن طريق اللقاءات والسفر لأمريكا لأخذ الدورات التدريبية وما إلى ذلك. وبالطبع، فإن التأثير يكون بالمظهر فقط، وكل ذلك بما يخالف طبيعة الشعب الأفغاني. ولا شك أن التغيير مطلوب ومرغوب، لكن المهم: في أي اتجاهٍ يسير؟ وبأي وسيلة؟ فإن كان الهدف هو إخراج المرأة من وضعها الصعب، فتلك السياسات ليست مطلوبة في هذا الوقت. فعلى سبيل المثال، في مجال التعليم يجب توفير مدارس وجامعات خاصة بالنساء «لأن المجتمع الأفغاني له تقاليده التي يصر عليها، فإن الكثيرين من الأفغان يصعب عليهم إرسال بناتهم إلى الفصول الدراسية المختلطة. ومن هنا ستبقى المرأة محرومة من التعليم والتربية بسبب ضيق أفق أصحاب المشروع الأمريكي، فإن هؤلاء لا يهمهم معالجة مشكلات المرأة الأفغانية الحقيقية، بل الذي يهمهم هو أن يُخرجوا المرأة الأفغانية من جلبابها»[٢٩]. ففي المقابل تعاني المرأة مشكلات جمة يجب التركيز عليها بشكلٍ أكبر مثل الأوضاع الصحية والاقتصادية التي تحتاج إلى موارد مالية ضخمة.

٤- تقنين العلمانية:

وذلك عن طريق صياغة الدستور الأفغاني في ظل حالة من الاضطراب والفوضى في البلاد، وقد شُكِّل المجلس البرلماني (اللويا جيركا) لبحث الدستور وقد كان معظم أعضائه من الأميين! وهناك عدة أمثلة على التأثير الغربي في صياغة الدستور؛ فقد نص الدستور على أن النظام الاقتصادي هو اقتصاد السوق، وينص الدستور في المادة الثانية منه على أن أتباع الأديان الأخرى يتمتعون بالحرية في اتباع أديانهم وأداء المراسيم الدينية في إطار القانون برغم أنه لا توجد أقليات دينية سوى السيخ ويمثلون ١ ٪، فهل هناك مجال لتغيير هذه النسبة عن طريق الحملات «التبشيرية»، فلماذا لم يخصوا السيخ بهذا الأمر؟

ونص الدستور أيضًا على «تنظيم» وتحسين وضع المساجد والمراكز الدينية والمدارس، ويُخشى من ذلك تأميم التعليم الأهلي في أفغانستان. كما نُص على الحريات المطلقة في أكثر من وضع، وهو ما لا يناسب المجتمع الأفغاني.

وفي هذا الإطار، سُمح بإنشاء المؤسسات التعليمية للأجانب (وهو سلاح ذو حدين).

٥- استيراد الكوادر الغربية في هيئة مستشارين أجانب يأخذون مبالغ ضخمة ويعملون في مختلف المجالات.

٦- إعادة صياغة مؤسسات الدولة على أسس متغربة.

٧- فتح مجال للتبشير والمذاهب الهدامة: تهيأت الفرصة في المرحلة الحالية لعمل المؤسسات التبشيرية وللفرق الهدامة مثل البهائية والإسماعيلية في أفغانستان بشكلٍ واسع جدًا. إذ تشتغل عشرات المؤسسات التبشيرية والإسماعيلية في مختلف الولايات الأفغانية، وخاصةً المناطق الفقيرة، وتستغل الظروف المعيشية الصعبة للناس في تغيير دينهم.[٣٠]

وذلك كما يهدد الثقافة الأفغانية يهدد أيضًا التكوين الديموجرافي للبلد ويزيد الطين بلة للوضع الأفغاني بما يهيئ للتدخل الخارجي في المستقبل بدعوى حماية الأقليات.

٨- تشجيع العصبيات: وقد ظهر ذلك في التشكيل الوزاري، وفي مختلف الأحاديث السياسية، فمثلا في الانتخابات

الأخيرة كان موضوع العرقيات مهمًا في الحديث عن التمثيل السياسي، وهو أمر موجود بالفعل ولكن من الممكن تهميشه أو تضخيمه كما حدث في العراق.

إن الحاجة إلى إعلاء مفهوم الجهاد والمقاومة الثقافية (بجانب المناحي الأخرى) لأمر مهم جدًا في هذه المرحلة الحرجة، فإن الاحتلال إن فشل في إحداث تغيير جذري في الثقافة الأفغانية، فإنه قد يتمكن من عمل طبقة من المتعلمين المتغربين كما فعل الاحتلال في دولنا العربية، وقد تحكمت هذه الطبقة في الدولة، وكانت وسياستها شوكة في جسد الفكر الحضاري الإسلامي، وعائقًا لم تنجح الأمة في تخطيه حتى الآن. وتلك الطبقة برغم أنها لا تشكل نسبة كبيرة لكنها مؤثرة.

في هذا الموضع أستحضر أفكار مالك بن نبي حول الاحتلال الفرنسي لبلاد المغرب العربي، أستحضر التاريخ المصري والتحولات الفكرية التي مرت به، لقد صنع الاحتلال في بلدنا تغييرات فكرية تعدّت التنوع إلى التشوه، وأعادتنا قرونًا إلى الوراء، بل ومازلنا نتخبط في رؤانا وأفكارنا، فلم تعد عندنا ثوابت حول مبادئ الرقي الحضاري وحول تعريفنا لأنفسنا وهويتنا.

لقد عانينا سياسات التعليم ولم تنفك الدول الغربية في استهدافه برغم أنه أصبح حطامًا بجانب ميراثنا الثقافي الضخم.

لذا؛ أرى أن الأمة الإسلامية يقتلها أكثر ما يقتلها التشوه العقدي والفكري. فإذا كانت الولايات المتحدة وتحالفها قد غزت أفغانستان، فإن التقاتل الداخلي قد فتتها من قبل الغزو، فداء الأمة الإسلامية يأتي من داخلها أولا.

قراءة حول مفاهيم «الجهاد» و«الإرهاب» و«المقاومة» في الواقع الأفغاني:

يغلب على استخدام مفهوم الجهاد في الساحة الأفغانية استخدامه بمعنى القتال، وإن كان لا يغيب عن بعض المفكرين والقادة الأفغان استخدامه بشكلٍ أوسع، ومفهوم الجهاد – كما يقول راشد الغنوشي في عرضه عند الشيخ يوسف القرضاوي– أنه «من خلال التحليل اللغوي لمادة الجهاد وتدور حول بذل الوسع، ومن خلال تتبع ورودها في القرآن والسنة ولدى فقهاء الإسلام لينتهي إلى تفريق واضح بين الجهاد والقتال، فلقد ورد الأمر بالجهاد في القرآن المكي حيث لم يكن قتال بل مجرد جهاد دعوي بالقرآن ﴿وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢]. كما ورد الجهاد في القرآن والسنة وفقههما بمعانٍ عدة تدور حول بذل الوسع في مجاهدة العدو ومجاهدة الشيطان ومجاهدة النفس، وهو ما يجعل الجهاد أوسع من القتال»[٣١] وهو ما يجب أن ننشره في حديثنا عن الجهاد.

المشكلة الأكبر في مفهوم الجهاد إطلاق هذا المفهوم على حالة التقاتل الداخلي التي حدثت في أفغانستان، فطالبان تتحدث عن جهاد ضد التحالف الشمالي (من قبل الغزو)، والتحالف الشمالي يتحدث عن الجهاد ضد طالبان. وهنا، تبرز ضرورة استجلاء هذا الحكم المتعلق بالفئة الباغية؛ هل يمكن إطلاق الجهاد على هذا الوضع؟ وهل هذه هي حالة الفئة الباغية؟ وما مدى شرعية حكم المتغلِب في الحالة الأفغانية؟، إن الحديث عن هذا الأمر لا يعد حديثًا عن تاريخ، بل إن مستقبل أفغانستان متعلق بهذا الحكم، فماذا سيحدث عند خروج الاحتلال هل سترى كل فئة أن لها حقًا في الجهاد، وأن قتلاها في الجنة وقتلاهم في النار! فهذا ما حدث في أفغانستان بعد خروج الاحتلال السوفيتي، حدث اختلاف سياسي فلم يلق أحد أسلحة الجهاد بل رفعها في وجه أخيه لأنه هو المعتد.

يجب أن يستعد الأفغان لإلقاء السلاح بعد خروج المحتل: فكما أن الجهاد مفروض ضد الاحتلال فإن التقاتل مرفوض بعد ذلك.

أما مفهوم المقاومة، فهو قليل الاستخدام باعتبار أن مفهوم الجهاد هو الأكثر انتشارًا في المجتمع الأفغاني المسلم. ومازال هناك اختلاف حول التعامل مع الوضع الحالي، فالبعض يرى حركة طالبان وفكرها «المتشدد» أخطر على أفغانستان من الاحتلال الخارجي، وهنا تجب الإشارة أن عدم معاداة هؤلاء للاحتلال بشكلٍ واضح يزيد الدعم الشعبي لطالبان التي تتسم مواقفها بالوضوح والانسجام.

ويُستخدم مفهوم الإرهاب أكثر من قِبل الاحتلال والداعمين له للدلالة على المقاومة الطالبانية ومن والاها. ومن الصعب إقناع الأفغان أن طالبان وهجماتها إرهاب بينما الغارات الأمريكية بالطائرات على المناطق الآهلة بالسكان ليست كذلك. ومفهوم الإرهاب أصلا يُقصد به القوة الردعية التي تقلل من حدوث هجوم على الدولة المسلمة، ولكن ما حدث أنه جرى استخدامه حاليًا بمعنى ترويع الآمنين والمستأمنين كما يشير إلى ذلك بعض الفقهاء.

«الإرهاب» (بمعناه الغربي) هو السبب الذي يستند إليه الاحتلال في تواجده في أفغانستان تحت مسمى الحرب على الإرهاب. واكتسب المفهوم عبر السنوات الماضية معنًى سلبيًا على عكس المفهوم الردعي القرآني. وبالتالي، فإن الواقع طرح إشكالية تعريف مفهوم الإرهاب في ظل احتلال يعلن حربًا على الإرهاب ويمارسه في الوقت نفسه!

أفغانستان إلى أين؟

إن المشهد الأفغاني معقد جدًا، تتضافر فيه عوامل داخلية وإقليمية ودولية تجعل إخراج هذه الدولة من أزمتها أمرًا شديد

الصعوبة، فهي مثال على تصارع النفوذ الإقليمي والدولي وفي الوقت نفسه الاختلاف الفكري الذي أدى لاقتتال، كما أدى إلى الضعف الاقتصادي والسياسي.

فعلى المستوى الداخلي، يمكن تقسيم الساحة الأفغانية إلى ثلاث مجموعات، اعتمادًا على رؤية كل طرف لتعريف «العدو»:

- المجموعة الأولى: تتضمن طالبان الأفغانية ومجموعة حقّاني والحزب الإسلامي (قلب الدين حكمتيار). وهؤلاء يرون أن العدو هو قوات الاحتلال الأجنبية. وهذه المجموعة لا ترى جدوى من الحوار الداخلي قبل الانسحاب التام والحقيقي للاحتلال. وتكوين تلك المجموعة ليس متجانسًا في الأفكار، فالفكر الطالباني مختلف عن الحزب الإسلامي في مناحٍ أخرى.
- المجموعة الثانية: تضم الحكومة الأفغانية و«المجاهدين» (السابقين) المتعاملين معها ومعظمهم من تحالف الشمال المقاتل لطالبان. وهي ترى أن العدوالأخطر هو عودة طالبان، بل إنه أخطر من القوات الأجنبية على الأرض. وهذه المجموعة تختلف فيما بينها في الأفكار والانتماء السياسي ولكن جمعها عداؤها لطالبان.
- المجموعة الثالثة: هي المعارضة السياسية للحكومة مثل عبد الله عبد الله المرشح السابق للرئاسة وهو يعارض الحكومة وفسادها وسياستها ولكنه يرى أن طالبان أشد خطرًا على الأفغان، ثم هناك المستقلون من المجاهدين مثل المهندس أحمد شاه زي رئيس وزراء حكومة المجاهدين الموحدة والذي نأى بنفسه عن الأحزاب المتصارعة ويقوم بدور الوساطة بين الأطراف المختلفة.

أي لو فرضنا أنه لا يوجد عوامل خارجية، فإن المشهد الداخلي ينذر بعودة الاقتتال عند انسحاب قوات الاحتلال.

ومن ثم، فلا حل سوى الحوار ونبذ أسلوب القتال للهيمنة على حكم البلاد.

وعلى المستوى الإقليمي والدولي، تعتبر أفغانستان منطقة نفوذ لعدة دول خاصةً بعد الاحتلال، فهناك باكستان وهي تملك كثيرًا من مفاتيح الحل الأفغاني بحكم علاقاتها بطالبان والحدود الطويلة مع أفغانستان بالإضافة إلى تواجد قبيلة البشتون بين البلدين ما يعني أن كل الطرق تمر عبر إسلام آباد.[٣٢] ومع ذلك، لا يوجد اهتمام بتحسين العلاقة من قِبل الحكومة مع باكستان، وفي المقابل فإن علاقة الحكومة جيدة مع الهند العدو اللدود لباكستان. والهند بدورها أيضًا تدفع بمصالحها في باكستان، وليس من مصلحتها استقرار الحدود الباكستانية. وعلى جانب آخر، تتحدث بعض المصادر عن تنامي النفوذ الشيعي في أفغانستان؛ إذ لن تخسر إيران الورقة الأفغانية في تفاوضها مع الولايات المتحدة والغرب في الشأن النووي.

ويجب ألا نغفل السعودية التي يعول عليها الأفغان في الوساطة في حوار وطني يضم طالبان، علمًا بأنها لن تدعم ذلك الحوار دون شروط مسبقة وهو ما لن ترضى به طالبان.

أما دول التحالف والولايات المتحدة الأمريكية، فقد وقعت في المستنقع الأفغاني، ولم تستطع أن تحقق أي نصرٍ عسكري أو استراتيجي، ولكنها قد تحقق بالقوة الناعمة ما فشلت فيه القوة الخشنة.

فالأزمات الاقتصادية والفشل العسكري يدفعانها لإعلان خطة الانسحاب، ولكن تصريحات الناتو بأنهم لن يتركوا أفغانستان إلا بعد أن يتأكدوا من استتباب الأمن (وهو أمر صعب الحدوث)، تجعلنا نشك في جدية الانسحاب فهو انسحاب جزئي وليس كاملا كما يظهر.

وفي غمار كل ذلك، مازالت الأمة الإسلامية بعيدة عن مستوى الحدث، فنعم رأينا بعض الجهود في إعادة الإعمار من قِبل منظمة المؤتمر الإسلامي مثل افتتاح بعض المدارس وما إلى هذا، ولكنه يظل جهدًا قليلا على أرضٍ أعلنت الجهاد سنينًا طوالا وتمر بأزمات لن تُحل إلا بدور فاعلٍ للأمة على المستوى الرسمي والشعبي. فالدول الموجودة الآن موجودة في إطار التحالف ضد الإرهاب وبشكلٍ رمزي، والدول القادرة على الفعل مثل السعودية غائبة عن الأحداث.

إن الحديث عن الثقافة الاستراتيجية في أفغانستان يؤكد أنه برغم محورية الجهاد في الفكر الأفغاني، حيث إن الجهاد شرف للمجاهدين إبان الغزو السوفيتي، إذ يفاخر كل مجاهد بذلك الجهاد ويدرأ عن نفسه تهمة ترك الجهاد حتى وإن لم يكن ذلك أمرًا صحيحًا. إلا أنه يحدث الآن -في رأيي- أمريان؛ أولهما، تغييب الجهاد عن طريق إلهاء الشباب، وثانيهما أنه عندما يتعارك المجاهدون يفقد الجهاد معناه فيدّعي كل طرف أنه يجاهد حتى وإن كان ضد أخيه.

إن إحدى معضلات الوضع الأفغاني أن من يحمل لواء الجهاد ومقاومة المحتل وهي حركة طالبان (أهم الحركات المقاومة) أذاقت الشعب الأفغاني ويلات حكما عسكريَ لا يؤمن بتعدد الآراء حتى وصل الأمر إلى عدم السماح بتعليم المرأة، فالأفغان بين شقي رحى. فالجهاد واجب ولكن من يحمل لواءه لا يفهم فقهه، فنحن لا نعرف ماذا ستفعل طالبان إذا خرج المحتل وبقى من بقى في السلطة، إلا أن تجربتها السابقة لا تشير إلى قدرتها على عمل نهضة حضارية تعيد بناء أفغانستان. فشبح الحرب لن يغادر أفغانستان إلا إذا تقررت تنحية السلاح جانبًا فيما بينهم، ورفعوا سلاحًا واحدًا في وجه المحتل.

الهوامش:

(١) عرض لكتاب: جنيفر كنيبر، أندرو تيريل، الثقافة الاستراتيجية الإيرانية والردع النووي، مركز الإمارات للدراسات والبحوث، السلسلة: دراسات عالمية، الإمارات العربية المتحدة، ٢٠٠٩. عن موقع:

.http://www. neelwafurat. com

aspx-id=lbb186590./itempage.
155520&search=books

pdf Jean-.org/irp/agency/dod/dtra/syllabus.fas.
(2) www Larson".Johnson, Jeffrey A.nies L
.Comparative Strategic Culture Syllabus"

(٣) معلومات عن أفغانستان: org/wiki/.wikipedia.http://ar

(٤) حسب إحصاء ٢٠٠٨، نقلا عن المصدر السابق.

(٥) موقع الأمم المتحدة aspx-.org/Data.un.http://data
q=literacy%2b+afghanistan&d=GenderSt
at&f=inID:49;crID:84

(٦) أفغانستان: org/wiki/.wikipedia.ar.www

(٧) المصدر السابق.

(٨) موقع وزارة الخارجية الأمريكية:

htm .gov/r/pa/ei/bgn/5380.state.http://www

(٩) أفغانستان .www.org/.wiki/.wikipedia.ar

(١٠) شبكة الجزيرة، «مؤتمر لندن يقر إستراتيجية لأفغانستان»، http://www.net/NR/.exeres/
.aljazeera.5FF2A428-C9B5-456F-B5B0

htm.E8FCC62EB61F

(١١) المصدر السابق.

(١٢) بشير الأنصاري، مؤتمر كابل الدولي ومشروع الاحتلال الثنائي، http://www.net/NR/.aljazeera.exeres/
1C7C48D1-E9C7-42F0-81EE-
htmÅ.2F39B5697DF5

(١٣) المصدر السابق.

(١٤) أخبار شبكة الجزيرة، الناتو يبحث نقل القيادة للأفغان، على الرابط: http://wwwnet/NR/.aljazeera.exeres/
8F146F9E-

htm.7269-4904-A002-114F5A339BC0

(١٥) المصدر السابق.

(١٦) نبيل شبيب، أفغانستان مقبرة استراتيجيات الهيمنة:

http://www.net/NR/exeres/.aljazeera.

B1412BC5-6061-4D70-AD02-
.htm 31/12/2009.BC15D3290C50

(١٧) محمد الشافعي، أفغانستان حرب لا تنتهي: الملا عبد السلام ضعيف: مشكلة طالبان ليست كرزاي بل القوات الأجنبية، جريدة الشرق الأوسط: http://wwwcom/aawsat
asp?issueno=11679&article=595806.details

(١٨) انظر مقالة Rubin and Carlotta Gall,Alissa J
Widespread Fraud Seen in Latest Afghan
http://wwwcom/nytimes.Elections, 2010/
09/25/world/asia/
html?_r=1&pagewanted=all.25afghan

(١٩) أخبار الجزيرة، أمريكا: التقدم متواضع بأفغانستان، http://wwwnet/NR/exeres/aljazeera.
94B1F052-B579-4439-8714-
.htm.BC6B39E1385A

(٢٠) عن موقع مكتب الأمم المتحدة لتنسيق الشؤون الإنسانية (أوتش) بتاريخ ٩ نوفمبر ٢٠١٠، org/.irinnews.http://arabic
.aspx?SID=232.ReportArabic

(٢١) منظمة الشفافية الدولية، تقرير ٢٠١٠ على الرابط:

http://wwworg/policy_research/.transparency
surveys_indices/cpi/2010/results

(٢٢) نبيل شبيب، أفغانستان مقبرة استراتيجيات الهيمنة، مصدر سابق.

(٢٣) محمد الشافعي، أفغانستان حرب لا تنتهي: أفغانستان تترك تعاليم طالبان إلى تعلم الإنجليزية والكومبيوتر، http://wwwcom/.aawsat.
asp?issueno=11688&article=597056.details

(٢٤) المصدر السابق.

(٢٥) المصدر السابق.

(٢٦) محمد الشافعي، أفغانستان.. الوجه الآخر - الحلقة (٣) - وزير الحج والأوقاف الأفغاني: الغزو الثقافي ينخر في عظام شبابنا وأشد مرارة من فيروس طالبان، جريدة الشرق الأوسط .http://wwwcom/.aawsat
asp?section=4&article=534564&i.details
ssueno=11238

(٢٧) أمين خراساني، الاحتلال العسكري والغزو الثقافي وفرض القيم الغربية، موقع رسالة الإسلام على الرابط:
com/.islammessage.http://mail
aspx?cid=1&acid=123&pg=17&.articles
aid=9447

(٢٨) المصدر السابق.

(٢٩) المصدر السابق.

(٣٠) المصدر السابق.

(٣١) راشد الغنوشي، ما الجديد في جهاد القرضاوي،
http://wwwnet/arabic/madarik/politics/.onislm

html.119910-2010-08-11-095910

(٣٢) انظر: بشير الأنصاري، مؤتمر كابل الدولي ومشروع الاحتلال الثنائي، http://wwwnet/.aljazeera.
NR/exeres/1C7C48D1-E9C7-42F0-81E
htm.E-2F39B5697DF5

●●●